تماهي التاريخ والتخييل
في رواية سوناتا لأشباح القدس لواسيني الأعرج

The identification of the history and the fantasy in Sonata's account of the ghosts of wassini el aaradj

د/ أوريدة عبود/

أستاذة محاضرة صنف أ *

تاريخ الاستلام: 11 07 2018 **تاريخ القبول:** 08 01 2019

الملخص تهدف هذه الدّراسة إلى استجلاء جمالية التّشكيل التّجريبي في رواية "سوناتا لأشباح القدس"، التّي تجاوزت المألوف لخلق صورة خطابية مغايرة وجعلت المتخيل واقعا الواقع متخيلا كاستدعاء التّاريخ من خلال فعل التّخييل. فالرواية لا تقول التّاريخ لأنّه ليس هاجسا ولا تتقصى الأحداث والوقائع لاختبارها فليس ذلك من مهامها، إنما تستند فقط إلى المادة التّاريخية وتدفع بها إلى قول مالا يستطيع التّاريخ قوله.

توصلت دراستنا من خلال مقاربتنا لهذه الرواية إلى نتائج تتلخص في

– أن التّاريخ فيها يتشكل كمعرفة أنتجها المتخيل السّردي، ضمن سياقات جمالية ركزت على مقولة الهدم والبناء ونفي السّائد وتثبيته خياليا.

–رواية "سوناتا لأشباح القدس "هي حكاية وطن يسمى فلسطين، هي مرثية الإنسان وصرخة سردية لأوجاع مزمنة..تتأرجح بين الماضي والحاضر عبر خيوط رفيعة من الذاكرة والحلم والتّداعي والوصايا،تتزاحم فيها الأمكنة والأزمنة والشّخصيات تائهة بين المنفى والوطن.

* جامعة مولود معمري/تيزي وزّو، الجزائر، البريد الإلكترونيّ: abboudourida@yahoo.fr

الكلمات المفتاحية: التّــاريخ، التّخييــل، السّــردالروائي، الانزيــاح، الــراهن الفلسطيني، الوطن، الهوية، الماضي، الألم، التّحرر، الكتابة الحلم، الهجرة، الحنين.

Abstract :

This study aims to clarify the aesthetics of experimental formation in the novel "Sonata of the Ghosts of Jerusalem", which went beyond the familiar to create a different rhetorical image, and made the visual reality and imagined as a recall of history through the act of imagination. The novel does not say history because it is not an obsession and does not investigate events and facts to test them, it is not one of its functions, but based only on historical material and push it to say what history can say.

Our study, through our approach to this novel, reached conclusions that are summarized in- that history is formed as knowledge produced by the narrative imagination, within aesthetic contexts focused on the argument of demolition and construction and exile prevailing and installed imaginary. The Sonata of the Ghosts of Jerusalem is the story of a homeland called Palestine, the human heritage and the cry of a narrative of chronic pain. It oscillates between the past and the present through high strands of memory, dream, decay and wills, where places, times and personalities are crowded between exile and Motherland .

Keywords: history, fiction, narrative, displacement, current, Palestinian, homeland, identity, past, pain, freedom, writing dream, migration, nostalgia.

1- مقدمة : تعتبر الرواية الجديدة التّي تستثمر التّاريخ مكسبا إبداعيا استقت مادتها الإبستمولوجية من منبع معرفي، يتعاطى قواعد الطبيعة ويتجدد وفقها فكان على المبدع الذي يبحث في خباياه التّقاط أسرار التّجدد والانفتاح، حتى تتلاشى سلطة المعيارية وتتجلى سلطة الرؤية الإبداعية، التّي تتعامل مع المادة التّاريخية كونها مادة ثقافية يمكن تحويلها وإخضاعها لتقنيات الرواية الجديدة. وبناء على ذلك فإن الرواية تسترجع كل ما يناسب الحاضر وتستغله لأجل أن يخدم أغراضها الإيديولوجية والفنية،الأمر الذي يفتح مواجهة بين الواقعي والمتخيل.

لقد استثمرت "رواية سوناتا لأشباح القدس" المكنونات الثمينة، التّي يتمتع بها التّاريخ بتحويل معانيه إلى معطيات جمالية دلالية تبرز بشكل جديد في النّص الروائي. من هنا فإنّ التّاريخ يواجه الواقع الّذي مضى بواقع الحاضر مغذيا تطور حديثيته انطلاقا من إعادة تكوين الواقع بمادة رمزية كتابية. حيث تتواجه المعرفة التّاريخية والمعرفة الروائية.لهذا تطرح دراستنا إشكالية :

كيف ينبغي أن نفهم الرواية التّاريخية؟

لماذا تسائل الرواية إشكالات التّاريخ؟

ماهي الآليات الفنية التّي استثمرت رواية "سوناتا لأشباح القدس' لتمثل التّاريخ؟

كيف استغل الروائي التّاريخ ليجعله مرجعية لفضائه المتخيل؟

الفرضية: تسعى رواية (سوناتا لأشباح القدس)،التّي استدعت التّاريخ في تركيب فني حامل لشحنات إيديولوجية إلى النّقد الواقعي من خلال التّاريخ المنسي، في تماهيه مع التّاريخ الراهن، ليس بتأويله إنّما بإنطاق المسكوت عنه في الماضي والحاضر. فالخطاب الروائي يستدعي التّاريخ كتعبير مخلص لتحولات الحاضر على ضوء ماض يصعب تحديد ماهيته.

أهداف الدّراسة: تهدف قراءتنا لهذه الرواية إلى إبراز كيفية استثمارها للتاريخ باعتباره آداة جمالية تقدم معرفة مثقلة بروح التّساؤل، عن وجود الإنسان وعن تاريخه، عن هوية الأنا وحوارها مع الآخر، وصراع الإيديولوجيات.،كما تهدف

إلى بيان كيف أن هذه الرواية تحدث متفاعلات نصية تاريخية، تقدم الوقائع المترامية عبر الأزمنة القديمة في شكل مكون نصي تخييلي قابل للقراءة والتّأويل.لهذا ستتخذ دراستنا المقاربة الثقافية التّأويلية للخوض في تفاصيلها ومرجعياتها.

2-الرواية بين التّاريخ والتّخييل:

أ- **الكتابة الروائية** يقوم الخطاب الروائي على التّطور والبحث المستمر عن سبل وآليات سردية خطابية مغايرة لكل ثابت ونمطي، فالبحث الدّائم الذي تتميز به الرواية هو ما يجسده مصطلح التّجريب، الذي يعني أيضا طبيعة الخطاب الروائي الذي يعكس طابع الحياة التّي لاتستقر على حال،كل ما في الحياة متحرك يأبى الاستقرار في الأفكار والأفعال،ومادامت الرواية واقعا اعتراضيا فهي كذلك متحركة تتفاعل مكوناتها اللغوية وغير اللغوية بكل تأثيثاتها بشكل تكاملي.هذه الحركية التّي تعرفها الرواية تعبر عن طموحاتها التّحررية لتنتقل بعد ذلك لتبني تكوينية حديثة للنص من خلال التّجريب، لأنه يتمثل في ابتكار أساليب جديدة في أنماط التّعبير الفني.

تزاوج الكتابة الروائية بين سلطة التّاريخ كخطاب مهيمن عايشته الجماعة البشرية وبين متطلبات سردية تعيد تشكيل الواقع تشكيلا رمزيا له فضاءاته الإنزياحية من خلال إعادة تمثل الحياة بالبحث عن الحقيقة وعن مجموع القيم والمعارف المندسة في أعماق النّاس، مما يفرض على الكاتب مناخا تخييليّا تتحول فيه المادة التّاريخية إلى محكي له طابعه الجمالي، تقوم فيها الأحداث والشّخصيات بربط التّمثيل التّخييلي بالواقع والحياة، وإعادة دمج الماضي مع لحظة الكتابة فيتحوّل الماضي التّاريخي إلى إبداع وإلى وقفة جمالية تجعل التّاريخ ديمومة حضارية وسيرورة معرفية في كيان البشر.

ب- سلطة التّاريخ: يتموقع التّاريخ في الرواية الجزائرية المعاصرة ضمن السّياقات المعرفية المتميّزة؛ بحيث استطاع أن يشكل في الخطابات الأدبية مرجعية

لها حضورها وآلياتها. تعاملت الرواية مع التّاريخ بشكل مكثّف حاولت من خلاله قراءة الراهن الجزائري والعربي قراءة تاريخية حاولت فهم الحاضر ضمن أحداث الماضي، مما جعلها تستحضر استراتيجيات إنتاج النّص الرّوائي ضمن خطاب التّاريخ الموظف عبر تشكيلات سردية مختلفة.

وبناء على ذلك كان لزاما علينا أن نفهم حقيقة الرواية التّاريخية كنمط وتشكيل روائي له خصوصيته ومرجعيته الخاصة، وهذا ما ذهب إليه جورج لوكاتش حين أقرّ في أبحاثه أنّ المعرفة التّاريخية ضرورية في حياة الكاتب والروائي لا بدّ أن يرسم الأبعاد التّاريخية لعمله الإبداعي حتّى يتسنى له وضع رؤية مستقبلية لخطابه الروائي.

تعدّ رواية "سوناتا لأشباح القدس" من الروايات الجزائرية، التّي استلهمت التّاريخ بأحداثه عبر تلاق انزياحي تراجع فيه تسلسل الأحداث وحلّ محلّها سرد تخييلي وإعادة استدعاء التّاريخ عن طريق توظيف آليات فنية سردية مختلفة لتمثله، فعندما يشتد القهر الاجتماعي: "تقيد الحريات بأصفار فولاذية، وتفرض على الكلمة ستارا حاكما من الصمت الرهيب، لذا فإنّ أصحاب الكلمة يلجؤون إلى وسائلهم وأدواتهم الفنيّة التّي يستطيعون بواسطتها أن يعبروا عن أرائهم وأفكارهم بطريقة فنية غير مباشرة"[1]. فرواية سوناتا لأشباح القدس استطاعت أن تبعث حقيقة: "المعنى الحضاري للعرب والمسلمين في قلب التّنازع السّياسي والأخلاقي المبتلى بممارسات سياسية"[2]

_3- آليات تمثل التّاريخ: تحاور رواية "سوناتا لأشباح القدس" التّاريخ وتسائل إشكالاته في مواجهة راهنه، واستشراف مقبل أيامه للوصل إلى ما وراء الأحداث وما خلف الوقائع. ينطلق الروائي مما كان إلى ما هو كائن إلى ما يكون في برامج سردية تغوص في الأعماق وتعانق التّاريخ بأمكنته ووثائقه وأرقامه.

أ-الوثائق والنّصوص التّاريخية: اعتمد واسيني الأعرج في هذه الرواية على مجموعة من الوثائق والرسائل والنّصوص التّاريخية وهي نصوص لها حقيقتها وأصحابها التّي تحيل إلى تاريخ فلسطين من خلال قتل أعيانها وشعبها الثائر.

فقد انتقلت المادة التّاريخية التّي استعملها الكاتب في هذه الرواية من إطار الوثيقة بالمعنى التّاريخي إلى إطار السّرد الروائي، وذلك بخلق تصورات جمالية يفهم من خلالها المتلقي الواقع المعقد بكلّ تمظهراته، لهذا فإنّ السّرد الروائي عندما يستغل الكتابة التّاريخية: "لا يختزل التّاريخ ولكنه يجعله مرجعيته لفضائه المتخيل لغرض الكشف عن مهملاته، ومنسياته، وأحيانا لتبديد شكوكه، وأحيانا السّقوط في المحظور التّاريخي، وهكذا يخرج التّخييل من معقوليته التّي تحرق الواقع والأحداث التّاريخية"[3].

تكتسي الوثيقة التّي اعتمدها الروائي في هذه الرواية صيغة نصية بحكم تسريدها وهي ماثلة في مختلف مراحل الرواية، ويظهر ذلك خاصة عندما تنفتح على الذاكرة لتستعرض مختلف المواقف، وقد ظهر ذلك من خلال وصايا الفنانة "مي" لابنها "يوبا" بعد أن أخرجت كتابها وكتبت مذكراتها عن حياتها الماضية والحاضرة وأمنياتها المستقبلية، بدفن رمادها في أرض القدس، وكذا مذكراتها حول حياتها مع الفنانين الأمريكيين وعشقها للألوان والرسم.

تتوسل رواية "سوناتا لأشباح القدس" في استعادتها للتاريخ أسلوب المذكرات والرسائل، كما تتحول فيها بعض الأشياء كالصور إلى محفزات تذكر الشّخصية بتاريخها. تعتبر هذه الرواية رواية ذاكرة من الدّرجة الأولى، لأنّها تستند إلى الماضي في بناء متنها الروائي، فالحاضر في هذا النّص لا يشغل فيه إلاّ لحظات فهو عبارة عن استرجاعات لأزمنة قريبة من الحاضر كاستعادة للرحلة التّي قادته إلى مدينة ميلانو للمشاركة في مهرجان تكريم الفنانة الراحلة "ماريا كلاس" واسترجاعه لجانب من سيرة والدّته الذّاتية "مي" التّي توفيت بعد صراع مع مرض السّرطان.

إنّ الفصل الأخير من الرواية كله عبارة عن مذكرات "مي" التّي دونتها قبل وفاتها عثر عليها ابنها "يوبا": "هذه إذن مدونة الحداد، كراسة أمّي السّحرية؟ لم يكن أمر البحث عن الكراسة النّيلية صعبا فقد وجدتها في عمق الصندوق الخشبي الصغير الّذي انبعثت منه رائحة خشب الزيتون العتيق"[4].

شرعت "مي" في كتابة مذكراتها عندما أحست بقرب أجلها وفقدت كلّ أمالها في أن تدفن في موطنها الأصلي فلسطين: "الشّروع في كتابة مذكراتي الموسومة بالرماد والألوان، والكثير من الخوف. بكل الصدق الّذي يملأني ربّما استطعت أن أتخلّص من بعض أنيني العميق إن أسعفني الموت الّذي يترصدني"[5].

لا تقف الرواية عند استرجاع سيرة السّاردة، انّها تتعدى ذلك إلى استرجاع تاريخ وطنها؛ فهذه الرواية لا تستثمر الأحداث التّاريخية فحسب؛ بل تسهم في البنية الفنيّة والدّلالية لها. فالرواية: "تاريخ متخيل خاص داخل التّاريخ الموضوعي وقد يكون التّاريخ المتخيل تاريخا لشخص، أو لحدث أو لموقف أو لجماعة، أو للحظة تحوّل اجتماعي"[6]. ولأنّ التّاريخ معرفة والرواية تخييل؛ فإنّ الروائي يقوم بامتلاك هذه المعرفة كمادة قص، ثمّ يعيد صياغتها بلغة خاصة وفق منظورات تجمع بين الواقعي والتّاريخي والرمزي والايديولوجي فتصبح الرواية بذلك كتابة مميزة للتاريخ.

لقد ورد في هذه الرواية الكثير من المؤثرات التّاريخية المرتبطة بفلسطين وأهمها ما جاء على لسان "مي": "منذ نصف قرن استيقظت مدينة الله على جرح الموت، أتذكر جيّدا يوم الثلاثاء 29 أكتوبر 1947م"[7].

يعتبر هذا التّاريخ من القرارات الصادرة لتقسيم فلسطين، كما صرحت السّاردة بمؤشر زمني الّذي يمثّل انتهاء الانتداب الإنجليزي وتسليم فلسطين لليهود. تقول: "جاءت فجيعة أخرى صباح 15 مارس 1948م، لتختم الكل عندما أعلن الإنجليز انتهاء الانتداب بعد أن سلّموا كلّ شيء لجنود الهجاناة"[8].

وظفت الرواية الوثيقة التّاريخية كاستراتيجية جديدة تبحث بصدق ومسؤولية عن الهوية الفلسطينية والمصير الفلسطيني. تتحرك بثقة فوق تراكمات ضياع الانسان العربي، تناجي الحقيقة والعدالة: "10 أفريل 1948م –القدس حارة المغاربة، البارحة ليلا وكعادتها هاجمت مجموعات فرق الهجاناة بيت عائلة الحسيني العريقة بحثا عن أحد الأفراد المقاومين، وعندما تدخلت الأم أطلق عليها أحد عساكر الهجاناة النّار"[9].

لقد وقف الروائي عبر هذه الوثائق التّاريخية على رقعة التّاريخ وسافر من خلال هذه الاستراتيجية إلى أماكن بعيدة من ذاكرة الإنسان الفلسطيني، وصنع حياة جديدة تتحرك فيها الشّخصيات والمشاهد وتتحاور فيها الأزمنة، فتبرز صورة التّاريخ بكل أبعاده ودلالتّه عبر الكتابة والتّصورات والأفكار.

تروي "مي" الأحداث التّي وقعت قائلة: "عندما أعلن الانجليز انتهاء الانتداب بعد أن سلموا كلّ شيء لجنود الهجاناة والأرجون والشّتيرن فرح الأهل وظنّوا أنّ الانجليز صمّموا أخيرا على مغادرة البلاد"[10]. لكن الاحتلال الاستيطاني استهدف الأرض والهوية الوطنية الفلسطينية وحاول بكل الطرق أن يقضي على الثوابت الوطنية وأن يقطع كل صلة تربط الفلسطيني بأرضه ووطنه: "بهيك بساطة قرروا تقسيم فلسطين"[11].

عندما تكاثفت قوى الاستعمار الغربي على الصعيدين المادي والمعنوي، وعندما فقد الانسان العربي الكثير من القيم التّاريخية والتّراثية جاءت الرواية لتحتضن التّاريخ وتسجل كل مظاهر القهر، وتساير كتلة التّغيرات ذات الصلة بهذا الواقع المرير وبهموم الانسان، وتكشف مدى اختلاط الماضي بالحاضر والمستقبل في بوتقة رؤيوية غائمة[12].

إنّ الرواية والتّاريخ: "مصطلحان تاريخيان لغويان رضعا من ثدي واحد هو الخبر وهما قائمان على التّأثير والتّأثّر ببعضهما البعض"[13].

حملت رواية سوناتا لأشباح القدس" على عاتقها مجموعة من الأسئلة عن الزمن، والانتفاضة والسّلام والفن، أسئلة تنصب كلها في محور فلسطين والبحث في تاريخ هذا الوطن العريق.

ب-الذاكرة /تحرر من شروط الزمان والمكان : إن الإحساس بثراء الحياة وامتدادها التّاريخي، يتجلى كتابة بواسطة اللغة وتراكيبها ويجعل السّرد قبل أن يكون تقنية من تقنيات الكتابة سردا لحياة فرد في سيرورتها وتراتبية تجاربها فالكاتب يلجأ لربط الاسترجاع بمستوى الزمن السّردي الحاضر بوسائل تتمثل في الاعتماد على الذاكرة لاستثارة ذكريات الماضي، واستخدام المونولوج في عملية الاسترجاع،و اللجوء إلى اسلوب المذكرات والاعترافات لإضاءة جوانب مهمة من الشّخصية الماضية.

ولكي تنشط الذاكرة في استعادة الماضي لابد من الاستعانة بشيء من الخيال المتولد في المخيلة الكامنة في أعماق كل منا، وقد يفهم البعض أن المخيلة قد تسمح لفضاء خيالنّا أن يبتدع أحداثا ووقائع لم تقع لنا، فالمخيلة التّي تفتح فضاء خيالنّا لا تعنى خلق أحداث وشخصيات لا وجود لها في الواقع، إنما تضيء بعض الجوانب التّي غشيها ضباب الذاكرة، فحجبها عن الإدراك أو لطرح بعض الاستفسارات عن بعض الأمور التّي تلبدت من حولها الغيوم في أعماق الذاكرة.

تسعى الرواية أن تصنع تاريخيتها الخاصة وذلك عن طريق التّحرر الكامل من شروط الزمان والمكان، وهذا ما يجعل المجتمع يعيش مرّة أخرى ضمن سياقات تخييلية تمكنه من معرفة ذاته معرفة يقينية، ولهذا السّبب: "لم يعد الروائي يعتني بالحدث التّاريخي لما يحمله من دلالات في الواقع السّياسي فقط، بل كرؤية وجودية للكاتب وحمولة نفسية تلف هذا الحدث، وتجعله يبرز منارة من بين ملايين الأحداث التّي تختزلها الذاكرة، ويكتب لبعضها البروز والآخر يبقى دفينا مطمورا"[14].

تتغذى رواية "سوناتا لأشباح القدس" من مخزون الذاكرة التّي: "تعدّ من التّقنيات المستحدثة في الرواية، والاعتماد عليها يضع الاسترجاع في نطاق منظور

الشّخصية ويصبغه بصبغة خاصة تعطيه مذاقا عاطفيا"[15]. تستدعي الرواية إذن الماضي: "لتوظيفه بنائيا عن طريق استعمال الاستذكارات، التّي تأتي دائما لتلبية بواعث جمالية وفنيّة خاصة في النّص الرّوائي"[16].

تعود بنا رواية "سوناتا لأشباح القدس" إلى مطلع القرن الخامس عشر لتذكرنا بتاريخ الأندلس، وزمن سقوطها وما كان من مذابح وتهجير العرب والمسلمين واليهود حينذاك وجد الموريسكيون** أنفسهم يطاردون خارج مدنهم وخارج تاريخهم. تعيش فلسطين التّاريخ نفسه، فنفس الملامح والضياع والمآسي التّي عاشها الموريسكيون تتكرر مع الفلسطينيين وكأن تاريخ الانسان هو تاريخ الحروب التّي لا تنتهي؛ فما يحدث اليوم هو حتما امتداد لمجموعة من العوامل السّابقة. والروائي يسافر من الحاضر إلى الماضي من أجل أن يفهم الحاضر وأن يحمل بعض قضايا العصر ليعلق عليها ويجيب عمّا بقي غامضا فترة من الزمن[17].

تأسست مدينة الأندلس على احترام الأدب وقبول اختلافات الآخرين واتسعت أرجاؤها لتحتضن النّاس دون تمييز. يقول الروائي: "هل تصدق هذا؟ خط عربي زخرفة إسلامية أنيقة داخل كنيس يهودي. أي زمن نعيش؟ صحيح أنّ الحياة لم تكن سهلة وربّما يتخاصمون أحيانا ويصطدمون حسب الاختلافات في التّصور لكنهم كانوا يجنون بعضهم بعضا"[18]. فالأندلس كانت أرض الميعاد و: "مدينة غرناطة ما تزال تنعم بقدر كبير من الحرية"[19].

هكذا كانت الأندلس، كانت تتسع للجميع، وكانت تعانق كل الحضارات وترحب بكل التّطورات إلاّ أن: "تناسل الحقد وحفر مسالك الموت لأنّ المسلمين طردوا من ممتلكاتهم شر طردة، بل لأنّ الزمن الّذي كان يزحف بثقة في الأفق زمنا حقودا زمنا لا يؤمن إلاّ بسيادة دين على آخر، هذا ما يسمّى بالحروب المقدسة باسم آلهة لا تعرف غير الحقد"[20].

يشغل الروائي المادة التّاريخية ليعيد بواسطة الخيال بناء المرحلة التّاريخية التّي يتخذها موضوعا ليقدم تركيبا جديدا للوقائع والأحداث والظروف التّاريخية

والشّخصيات المذكورة في تلك الفترة مع إضافة شخصيات متخيلة. هذا النّوع من الرواية تتجه نحو القارئ الواعي الّذي يدرك الحيثيات التّاريخية ليقبل بذلك على "مراقبة آلية تنفيذ الحدث التّاريخي وبلورته، وسيكون متابعا لإضافات الروائي التّي يجب ألا تكون على حساب المدّ التّاريخي ومصداقيته"[21]. فالخيال هو "القادر على إتمام التّاريخ بناء على معطيات التّاريخ نفسه"[22].

تتكرر أحداث وقائع الأندلس اليوم في فلسطين؛ حيث إنّ استلهام التّاريخ في رواية "سوناتا لأشباح القدس" جاء تعبيرا صادقا على ما أكّده السّرد الروائي من استمرار الماضي في الحاضر. وعندما ينتقل الروائي من الحاضر إلى الماضي يهدف إلى استعادة الذات الضائعة باكتشاف معنى الاستمرار في شيء ما أو الانتماء إلى شيء ما يبدو قد ضاع إلى الأبد، ذلك أن الأزمات التّي عاشتها الأمّة العربيّة جعلت الروائي يذوق خيبة ألم كبرى انعكست على تفكيره الّذي عاد إلى الماضي وتلهف إليه للتذكير به.

ج-الكتابة/ تاريخ وهوية وذاكرة :تلجأ المرأة للكتابة كي تفرغ ما بداخلها من قلق وحيرة واضطراب وصراع، فهي بمثابة النّافذة التّي تلقي من خلالها ما بها من اختلالات، فهي تحقق لها التّوافق والاتزان، الذي ييسر لها أن تعيش حياتها الدّاخلية والخارجية من خلال ذكرياتها والكشف عن حياتها الباطنية، وتأمل ذاتها العميقة بما فيها من ثراء داخلي يمثل عالمها الصغير[23] .

فالماضي هو السّمة الأساسية لأي كتابة وهو:" التّدفق الحركي المتصاعد الذي يعمل على تجميع العناصر الدّرامية المتفرقة والمتباعدة . الملاحظ أن تذكر "مي" لماضيها كله أمر يكاد يكون مستحيلا، تصبح الأحداث مبتورة، وهنا يتدخل المتخيل ليملأ فراغات الأحداث التّي تذكرها خاصة البعيدة زمنيا كأيام الطفولة[24] فالذاكرة عندما تعلن فشلها ينهض المتخيل بديلا منتجا ليؤثث ما مزقته الذاكرة[25] .

أصبح مراجعة الماضي أمرا لا مفر منه في أي كتابة عن الذات، الذي يعتمد أكثر ما يعتمد على الذاكرة من أجل الانطواء على الدّاخل والهروب من حاضر

عنيف. ومن أجل استرجاع أحداث مضت كان لابد من إلقاء الضوء عليها حتى يكتمل محكي الحياة. يقول برادة في هذا الصدد:" إن الكتابة هي محاولة الإمساك بشخصية صاحبها في كليتها، وفي حركة موجزة وتركيبية للأنا، و لا بد من احتلال محكي الطفولة لمكانة دالة داخل المحكي، أو بصفة عامة التّطرق إلى مرحلة النّشأة في حياة الشّخصية"[26]،

إنّ العودة إلى الماضي ومراجعته تعتبر حتمية في كل كتابة عن الحياة الشّخصية، ثم إن الزمن بكل ما ينطوي عليه من إشكالات وتدخلات يعتبر من الركائز الأساسية في خلق النّص، والماضي باعتباره البنية الزمنية الأساسية في الكتابة عن الذات .الكتابة تولد الحياة من ظلمة القهر والغياب، وتصنع الوجود وتحقق للذات كينونتها: "الكتابة وحدها تستطيع أن تردم الهوة، وأن تسد الفراغ"[27]. إنّها دافع لمغادرة الأسر والقهر إلى حياة أكثر جدّة وتجديدا.

تكتب "مي" حكايتها ومأساتها وتاريخها، تنطلق من ذاتها التّي تقتات من الشّعور الملامس للفقدان والغياب في متاهات الوجود لتنقب على جذر التّكوّن، فتبعث روحه من الرّماد تغيثه من غمام الاحتراق، وتخلصه من السّواد فتصبه على جسد البياض[28]. حينما رأت "مي" الواقع يتنكر لها بدأت تكتب لتعبر عن واقعها، فالكتابة ولادة جديدة، وهي ذاكرة للماضي، وإدراك للحاضر وتفكير في المستقبل، تفكير في ذاتها ووطنها الّذي مجدته وكتبت عنه لتعوض ما غاب عنها أو سرق منها منذ سنوات فهي تقول: "أشعر أحيانا بأنّني مطالبة باسترجاع أرض سرق مني ... وطن اسمه فلسطين"[29].

لا يمكن فصل الكتابة عن الوضع الثقافي والاجتماعي للوطن؛ فالكاتب يمارس وجوده بوعي، لأنّه يدرك أن الكتابة هي أداة للتعبير نحو الأفضل تصل الماضي بالحاضر والمستقبل شأن ذلك شخصية "مي" في هذه الرواية التّي استطاعت بفعل الكتابة مقاومة كل ما يحيط بها من ضغوطات واحباطات، وأعادت لذاتها حضورها وسعيها لتثبت هويتها الحقيقية. فقد استطاعت أن تفهم العلاقات والصراعات التّي

يعيشها وطنها "فلسطين" فأخذت تكتب عن مجتمعها وتغوص في أعماقه، وتعايش انشغالاته وتسلك طريقها نحو كتابة تاريخ وطنها لتبحث بذلك عن هويتها وتجسدها على أرض الحقيقة.

يمثل التّاريخ بالنّسبة "لمي" الهوية التّي تسعى للبحث عنها لتحقق حريتها، فهي تنطلق من التّاريخ لتصل إلى الحرية، وقد صدق الحبيب السّائح حين قال: "للكتابة بداية هي التّاريخ نفسه وهوية هي الحرف، ووجود هو النّص"[30]. لهذا فإنّ "مي" حين تكتب فهي تعبّر عن تاريخ وطنها وعن الضياع والإحباط والألم. تقول: "أشعر أحيانا بأنّ الألم هو الّذي يجعلني أتكلم وأصرخ بصوت مكتوم، وكلما تعلق الأمر بالكتابة انتابني السّؤال الخفي الّذي لا سلطان لدي عليه: ماذا سأكتب، من أين سأبدأ"[31].

عندما تتحرك "مي" تجاه تاريخها تتحرك معه طواحن الزمن وترحل نحوها أتعاب الكتابة التّي: "هي تحويل لوجهة الملل من مدار الرغبة في الانتحار إلى وعي الموت الّذي يقضي الاستمرار في الحياة بمكابرة من يرفض التّسليم بالأمر الواقع وينتصر لثقافة المخاطرة على الاستسلام[32].

اشتغلت الكاتبة في رواية "سوناتا لأشباح القدس" على تاريخ الوطن (فلسطين) الّذي عرف كل أنواع التّدمير والتّخريب والتّمزيق والتّشظي، فأصبحت "مي" جرّاء ذلك غير قادرة على تحمل ما يحدث في القدس خاصة أن السّلطات الإسرائيلية منعت أن تدفن في بلدها الأصلي قالتّ: " أفضل أن أتحوّل إلى رماد لأسهل نقلي إلى أرضي البعيدة التّي لم أصلها وأنا حيّة"[33]. فالكتابة بالنّسبة لـ "مي" تعتبر حنينا للوطن وإحياء للذاكرة ووهجا للتاريخ.

تتمظهر الكتابة في هذا الظرف الصحي الذي تعيشه"مي" كفعل يتضاد مع النّسيان ليتشاكل مع فعل التّذكر،بمعنى أن البطلة انتابتها رغبة في محاربة النّسيان في مقابل إحياء الذاكرة من الاندثار بالكتابة.

أتاحت الكتابة لـــ " مي " اكتشاف تاريخ ذاتها، وقد جاءت تجربة الكتابة نتيجـــة رغبة ملحة في الإجابة عن سؤال وجودي عميق، فهذه التّجربة التّي خاضتها هـــو إعلان لموت الصوت واستنطاق للصمت بعبارة أخرى هي مقاومة لوعي الصمت والموت.

د-الرسم/ انتقال من تجربة الغياب إلى تجربة الحضور:يمثـــل الرســـم أهـــم الوسائل التّي يستطيع الفنان إبراز طاقته الكامنة، والتّعبير عـــن مشـــاعره. يرســـم الفنان عالمه الفسيح فينطلق فيه دون قيود، وعندما يمسك الفرشاة فكأنّه يمتلك العالم ويمسك بزمام الكون. فالألوان هي ألوان الذات والاشكال هي تموجـــات الـــروح. ومثلما يعبّر الرسم عن الذات يعبر كذلك عن هموم المجتمع، عن قضـــاياه، عـــن واقعه وتاريخه.

استلهمت الفنانة التّشكيلية "مي" من تراثها الـــدّاخلي وخبايـــا اللاشـــعور مـــادة لأعمالها الفنيّة وصارت الريشة والألوان بشتى تدرجاتها الملاذ الآمـــن لهـــا، وأداة لحفظ ذاكراتها وتحقيق ذاتها، لهذا قضت حياتها بين الريشة والألوان، ولم تغادرها حتّى وهي على وشك الموت، حتّى تستطيع أن تعيش في المكان الّذي أجبرت على تمضية بقية حياتها. تقول وهي تعبر عن شعورها بالغربة: "نحـــن نصـــنع ألوانـــا جميلة للأمكنة التّي تشبه الموت لكي نتحملها"[34]. فالفن بالنّسبة لها: " جرح تخـــرج منه شلالات النّور والآلام اللذيذة ولهذا نهب نحوه بسعادة غريبة مثل نور الأركيدا الّذي يركض نحو حتفه في السّاحة وهو لا يدري ذلك أو يدريه"[35].

تختزل رواية "سوناتا لأشباح القدس" رحلة عائلة فلسطينية أجبرت على تـــرك وطنها الضائع، بفعل الاحتلال الصهيوني. إنّها رحلة "مي" الفنانة التّشـــكيلية التّـــي غادرت مدينتها القدس، مدينة طفولتها غادرتها وهي بنت الثمـــاني ســـنوات إلـــى أمريكا. هذا الوطن البديل الّذي أعطاها حرية شخصية وسرق منها وطنها. لم تجد "مي" وهي تعاني من مرض السّرطان سوى رسم لوحات زيتية لحفظ ذاكرتها مـــن

النّسيان ومدينتها من الضياع، لتبقى القدس أمامها ولو على لوحة معلقة كما بقيت فراشات حاراتها في ذاكراتها، هذه الفراشات الّذي تبلل أجنحتها بنداها، انسحبت هي الأخرى أسعدني ألوان فراشات القدس"[36].

لجأت "مي" إلى الرسم للتخلص من الألم وتفعيل ذاكرتها،فهي تقول مصرّحة: " لم يكن لديّ حل آخر لكي لأموت إلاّ ألواني التّي ظلت تؤثث ذاكرتي"[37]. تروي لوحات "مي" حكاية وطن ذاق فجائع وهزائم موجعة وجسدت فيها حياتها وألفتها بعيدا عن وحشة المنفى وقسوة الواقع وقمعه.

تستثمر "مي" ذاكراتها بالرسم لاستعادة الصور المتعلقة بحياتها الماضية، إنها الآداة التّي مكنت البطلة من الانتقال بالذات من تجربة الغياب والفراغ إلى تجربة الحضور والامتلاء ومن اللامرئي إلى المرئي، فخلقت بديلا لواقعها المر وكشفت عن ممكنات الإرادة في الحاضر، واستطاعت بذلك أن تتجاوز الإحباطات التّي حاصرتها، وجددت قوتها للتصدي لهذا الواقع.

يحيل الرسم إلى قصة مجردة من العلامات الزمنية لكنها تختزل شبكة من الإشارات والعلامات والحدث،التّي تختصر الزمن والمكان.إن لوحات"مي"تجسد قسوة الزمن وتيه المكان ليلتحم فيها وعي الماضي بوعي الحاضر.

خلقت البطلة "مي" بواسطة لوحاتها التّشكيلية الجمال من الألم،لتسترجع الأرض التّي سرقت منها .إن الرسم والكتابة من الأشكال الفنية التّي تمتهن الاحتفاظ بالسّر،و هي من أسمى أشكال التّعبير عن حقيقة العالم والوجود على حد تعبير هيدجر.

خاتمة: يعد اشتغال الكتاب الجزائريين على التّاريخ بمختلف مصادره رؤية حداثية وهاجسا تجريبيا على المستويين الخطابي والدّلالي، بغية تأسيس مشروع الانزياح عند المتداول نحو إنشاد خصوصية سردية متميّزة، من هنا استدعى الأمر إبداع نصوص

لها خصوصيتها التّاريخية، يتماهى فيها السّرد الروائي مع السّرد التّاريخي كاستراتيجية حداثية تبناها الروائي في استدعاء التّاريخ.

وعلى هذا الأساس غدت الرواية الجزائرية المستلهمة لعناصر التّاريخ صرحا فنيا تجاوز الذات الإنسانية المتمثلة في مادتها الجامدة إلى أغوار جدلياتها بين الواقع والمتخيل. وعليه فإن بحثنا هذا توصل إلى **النّتائج الآتية:**

– يتشكل التّاريخ في رواية "سوناتا للأشباح القدس" كمعرفة أنتجها المتخيل السّردي ضمن سياقات جمالية ركزت على مقولة الهدم والبناء ونفي السّائد وتثبيته خياليا لأنّ الرواية هي كتابة عن الانسان المختفي خلف الوقائع .فالرواية انطلقت من ملفوظ تاريخي لكن التّخيل هو لفظها.

– للتاريخ في رواية " سوناتا لأشباح القدس" استراتيجيته وحكايته، أرقام وتواريخ ومواثيق، وسرد حكاية. حكاية "مي" المهجّرة تقاوم وحدها لعبة التّاريخ تكتب عن وطنها وتحلم به ترسمه وتحكي عنه وتشكل ملامحه، وتترك ابنها "يوبا" يحقق حلمها بنثر رمادها على تربة مدينتها لترتاح روحها المعذّبة، ويهديها مقطوعة السّيمفونية يلحن خلودها وانتصار روحها على حكاية التّاريخ التّراجيدية.

– انتشلت رواية "سوناتا لأشباح القدس " القضية الفلسطينية من مجالها السّياسي الضيق إلى مجالها الإنساني لتتجلى فلسطين من خلال شخصيات النّص التّي اشتغلت عليها بالكتابة واللون والموسيقى.

– رواية "سوناتا لأشباح القدس" هي حكاية وطن يسمى فلسطين، هي مرثية الإنسان وصرخة سردية لأوجاع مزمنة..تتأرجح بين الماضي والحاضر عبر خيوط رفيعة من الذاكرة الحلم والتّداعي والوصايا،تتزاحم فيها الأمكنة والأزمنة والشّخصيات، باحثة عن وطن يسمى فلسطين.

الهوامش:

[1]–علي عشري زايد، استدعاء الشّخصيات التّراثية في الشّعر العربي المعاصر، دار غريب، د ط 200م، ص 33.

[2]–عبد الله أبو هيف، الاشتغال السّردي ما بعد الحداثي، مقال في مجلة علامات ' النّادي الثقافي الأدبي .العدد 24'ص510.

[3]–فيصل دراج، نظرية الرواية والرواية العربيّة، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، 1999م ص 83.

[4]–واسيني الأعرج، رواية كريماتوريوم –سوناتا لأشباح القدس–منشورات الفضاء الحر، ط1 2008م، ص48.

[5]–الرواية، ص101.

[6]–ابراهيم الفيومي، الرواية العربيّة، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنّشر والتّوزيع، الأردن 2001م، ص 19.

[7]–الرواية، ص104.

[8]–الرواية، ص106.

[9]–الرواية، ص229–230.

[10]–الرواية،126.

[11]–الرواية، ص124.

[12]–ينظر غالي شكري، معنى المأساة في الرواية العربيّة، دار الأفاق الجديدة، ط2، بيروت 1980م، ص 40.

[13]–فيصل دراج، نظرية الرواية والرواية العربيّة، ص 82.

[14]–عبد المالك أشبهون، الحساسية الجديدة في الرواية العربيّة، روايات أدوار الخراط نموذجا منشورات الاختلاف ط1، الجزائر، 2010م، ص 199.

[15]–سيزا قاسم، بناء الرواية (دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ) الهيئة المصرية العامة للكتاب 1984م، ص43.

[16]–حسن بحراوي، بنية الشّكل الروائي، المركز الثقافي العربي، الدّار البيضاء، ط1 1990م، ص 121.

[**]الموريسكيون هم آخر سكان الأندلس الّذين تنصروا حفاظا على حياتهم أو أجبروا على التّنصير، إلا أنّهم لم يستطيعوا الاندماج في المجتمع الاسباني، لذا تعرضوا للطرد فكانت شواطئ المغرب والجزائر ملاذا لهم.

[17]–ينظر نضال الشّمالي، الرواية والتّاريخ، بحث في مستويات الخطاب في الرواية التّاريخية العربيّة، عالم الكتب الحديثة، عمان الأردن، 2006م، ص 134.

[18]–الرواية، ص 351.

[19]–الرواية، ص342.

[20]–نبيل سليمان، من الجذر اليهودي إلى الجذر الصهيوني في الرواية العربيّة، مجلة عمان ع121، ص 35.

[21]– نضال الشّمالي، الرواية والتّاريخ، ص 211.

[22]–المرجع نفسه، ص 138.

[23]– محمد زكي العشماوي، أعلام الأدب العربي الحديث واتجاهاتهم الفنية (الشّعر المسرح القصة، النّقد الأدبي) دار المعرفة، الاسكندرية 20002، ص 260.

[24]– ظر كمال الرياحي، حركة السّرد ومناخاته واستراتيجيات التّشكيل، ط1، دار مجدلاوي ص 178.

[25]ينظر: أحمد هيكل، الأدب القصصي والمسرحي، دار المعارف، ط4، مصر، 1983، ص 150.

[26]– محمد برادة، الذات في السّرد الروائي، دراسات نقدية، دار أزمنة للنشر، ط1، عمان 2010 ص 89.

[27]–حسن المودن، الرواية والتّحليل النّصي، قراءات من منظور التّحليل النّفسي، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر 2009م، ص 144.

[28]–ينظر حسن نجمي، الشّاعر والتّجربة، الدّار البيضاء، ط1، 1999م، ص 21.

[29]–الرواية، ص153.

[30]–الحبيب السّائح، الكتابة وتجربة الكتابة، مجلة عمان، ع 105، ص 19.

[31]–الرواية، ص 146.

[32]–مصطفى الكيلاني، الرواية والتّأويل، سردية المعنى في الرواية العربيّة، ط1، عمان 2009م ص 98.

[33]–الرواية، ص139.

[34]–الرواية، ص78.

[35]–الرواية، ص31.

[36]–الرواية، ص .359

37– الرواية، ص344.